Coptology

الروح القدس والحياة الروحية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٥

www.coptology.org

الروح القدس في أسرار الكنيسة السبعة[١]

أسرار الكنيسة السبعة التي تبدأ بالمعمودية وتصل إلى الزيجة هي حضور الثالوث الواحد الذي يهب عطايا متنوعة. وطقس الكنيسة القبطية يعبر عن هذه الحقيقة الواضحة، فكل رشومات الأسرار هي باسم الآب ضابط الكَل، والابن الوحيد، والروح القدس المعزِي.

الأسرار هي حضور واحدٌ وعطايا متنوعة. فالثالوث هو الثالوث لا يتغير حضوره مطلقا، لا يزيد ولا ينقص، وإنما الذي يتغير هو النعمة. فنعمة المعمودية ليست مثل نعمة الكهنوت، وليست مثل نعمة الزيجة.

الربُّ واحدٌ الذي يعمل الكل في الكل، ولكن المواهب والعطايا متنوعة.

الثالوث حاضر في كل سر؛ في المعمودية يعطي التبني، والتبني لا يمكن أن يعطى بدون الآب، أو بغياب الابن، أو من دون حلول الروح القدس.

في الميرون نوهب المسحة المقدسة، نرتدي ثياب عدم الفساد، نلبس القوة السماوية التي تعطي الحياة. ننال ختم الثالوث على أعضاء الجسد. نَقدَّس للآب بسبب وساطة الابن، وبعطية التقديس النابعة من الروح القدس.

في الإفخارستيا يأتي الكاهن العظيم يسوع المسيح ويعطي لنا جسده بالروح القدس، فندخل إلى حضرة الآب أنقياء بالفداء الذي لنا في يسوع المسيح.

أمَّا في التوبة، فالإنسان يشفى، يتجدَّد، يستنير، يعتق من رباطات الخطايا،

---

(١) محاضرة ألقاها الدكتور جورج حبيب بباوي في المؤتمر الثالث عن "الأسرة القبطية في المجتمع المصري المعاصر" المنعقد بكلية سان مارك بالإسكندرية في الفترة من ١٢ – ١٩ يوليو ١٩٨١.

يُحل أو يفَك من قيود الشر بالروح القدس، يعمل بكلمة التعليم في إرشادات أب الاعتراف وفي توبيخ القلب، يكشف الروح عن مكانة التبني التي فقدناها بسبب الخطية ويهيئ لنا العودة، يُجدِّدنا الروح القدس لننال قوة حياة وندخل في علاقة البنوة من جديد.

في مسحة المرضى نحن نَرشَم على جبهتنا، وأسفل الذقن على الرقبة، وعلى اليدين فقط. هذه علامة أكيدة على أن مرض الخطية يحتاج إلى شفاء الإرادة. شفاء موهبة النطق وهي علامة الحياة، شفاء الفكر، شفاء الخيال. ولذلك نَرشم الرأس والرقبة واليدين، وهي الأعضاء التي تكشف عن الإدراك والإرادة والشركة، أي قدرات الروح الإنسانية.

نَرشم باسم الثالوث على هذه الأعضاء، لأن الآب يعمل بالابن في الروح القدس.

في الكهنوت يقف الكاهن في مكان المسيح يخاطب الآب في ابنه، يطلب الروح القدس للكنيسة. يخدم الأسرار كلها، خدمة المسيح نفسه.

لماذا نؤكد حضور الثالوث في الأسرار؟

أولًا: كما تسلَّمنا من الآباء، الآب يعمل كل شيء بالابن في الروح القدس. لماذا؟ الآب هو المصدر، هو الينبوع الذي منه ينبع كل شيء. هو الأُبوة الفائقة التي تَهَب، وعندما يهب فهو يعطي هبة معلَنة واضحة، وهي بالابن، فالابن إعلانٌ عن الآب، يعلنه بوضوحٍ في عمله، في الكلمات المحيية التي سلَّمنا إياها. هذا واضح جدًا؛ الآب يعمل كل شيء بالابن. فالبنوة هي غاية عمل الآب، أن يصبح الناس

أبناء له.

لكن، لماذا تَوهب العطايا في الروح القدس؟

لقد تسـلَّمنا من الآباء أن هبات الله تُعطى في الروح القدس لأن الروح القدس هو غاية إعلان الابن عن الآب، هو عطية الآب، الآب يعلِن عن محبته في الابن، ولكنه يسكب هذه المحبة في الروح القدس. إن المحبة الإلهية ليست شيئاً كامناً في ذات الله يعلَن لنا في الابن وبعد ذلك تتوقف، أبداً، إنها محبة تَوهب للإنسان. كما يقول الرسول بولس: "محبة الله قد انسكبت في قلوبنا بالروح القدس الذي وهب لنا". إن لم تنسكب محبة الله لا يمكن أن تكون لنا شركة مع الله. فالله يفتح أحضانه لنا لكي نستريح نحن في أحضان الآب. يقول القديس كيرلس: "الابن في حضن الآب دائما، لكي تكون البشرية بعد تجسد الابن في حضن الآب، الابن في حضن الآب، ولكن ما هو حضن الآب، هو الروح القدس، الذي من الآب وحده ينبثق لكي يستقر في الابن. وعندما يستقر الروح في الابن يكون الآب في حضن الابن أيضاً، لأن الرب قد أكَّد "أنا في الآب والآب فيَّ".

هذا هو طريق الأسرار، أن ندخل في شركة مع الثالوث، فالآب يسكب كل شيء بالابن، أي يعلنه، وبعد ذلك يهب لنا هذه العطايا.

الله في المسيحية لا يعلن فقط عن نفسه، وإنما يهب ذاته للإنسانية. كما يقول أوغسطينوس: "المحبة تعلن أولًا عن نفسها ثم تَهَب نفسها بعد ذلك". المحبة لا تطلب ما لنفسها، ومن هو الذي حقَّق ذلك حتى النهاية؟ ليست الإنسانية، وإنما الله. لقد أعطى ذاته لنا بعدما أعلن عن ذاته. كل عطايا الآب معلَنةٌ في الابن، لأن غاية الإعلان هي التبني.

كل عطايا الآب المعلنة في الابن تَعطى في الروح القدس، لأن غاية العطاء هي الشركة؛ هي أن ننال الله نفسه.

لماذا تخصَّص الروح القدس كحامل للعطايا الإلهية؟

١– لأن الروح القدس هو روح الآب، فهو يعطي من الآب ومن الابن. العطية ثالوثية دائما. الآب يهب والابن يعلن والروح القدس يعطي. الآب يهب، بالابن، لأن الابن من ذات جوهر الآب، وهذا ما يجعل الابن قادرا على أن يجعلنا أبناء للآب فيه، في أُقنومه. أمَّا الروح الذي من الآب ينبثق، فهو يعطي لنا ما يعلَن في الابن. ما معنى هذا؟

– عطية تَعلَن، هي أصلًا آتية من الآب.

– عطية تَوهب، وتعطى من روح الآب.

سرٌّ فائق، هو سر المحبة التي إذا أعطت، تعطي كل شيء.

الأبوة من الآب.

البنوة من الابن.

لكن ماذا عن الروح القدس؟

– الأبوة خاصة بالآب. فهي الصفة الأقنومية التي لا يشاركه فيها الابن أو الروح القدس.

– البنوة خاصة بالابن. فهي الصفة الأقنومية التي لا يشاركه فيها الآب أو الروح القدس.

ولكننا ننسى أن الانبثاق يعني العطية، فهي الصفة الأقنومية التي لا يشاركه فيها الآب أو الابن.

لكن الصفة الأقنومية، ليست حالة عزلة. فالأُبوة لا وجود لها إلّا بالبنوة. كما أن البنوة لا وجود لها إلّا بالأُبوة. أمَّا الانبثاق فلا وجود له إلّا بالأبوة كمصدر لكل شيء.

أوريجينوس وايريناوس وغيرهما من الذين قالوا إن الابن والروح القدس هما ذراعا الآب، فقد قصد هؤلاء الآباء التأكيد على دخول الله بكليته في علاقة مع الإنسان بكلتا يديه ليصافحنا.

لكننا لم نعط بعدَ إجابةَ عن عمل الروح القدس؛

إذا كان الآب هو المصدر فهو يعطينا ابنه، أي ذاته. ألا يكفي هذا؟

ألا يكفي أن يعطينا الابن؟

لا يكفي، لأن وحدة الجوهر تجعل أي عمل للآب معناه اشتراك الابن والروح القدس فيه.

ولكن، لماذا لا تأخذ الروح القدس في الابن؟

نحن فعلًا نأخذه في الابن، لأنه روح الابن، ولكن توجد عدة أسباب تجعل عمل الروح القدس واضحا مميزا.

١– لأنه أُقنوم متمايز عن الآب والابن، فمن دون الروح القدس كأقنوم، لا يوجد ثالوث.

٢– إن الآب لا يعطي أُبوته للإنسان، بل هو يقبل الإنسان ابنَا له في ابنه، ويصبح ابنا لله وليس آبا، ولكن عندما يشترك الابن في بنوة الابن ليكون ابنا للآب فهو يعطى روح الآب، وعطاء روح الآب هو عطاء لما يتميز به الروح القدس، أي التقديس، فالإنسان يوهب البنوة من الآب بالابن، ويوهب التشبُّه بالآب من الآب

في الروح القدس، أي التقديس.

نحن نشترك فيما يميّز الابن والروح، ولكننا لا نشترك فيما يميّز الآب.

نحن نشـــترك في البَنوة، وفي التقديس، وهو عطية الآب الفَائقة، ولكننا لا نشـــترك في الأُبوة. تظل الأُبوة فائقة تعطى في الابن وتكمَّل بالتقديس، لأن الروح القدس يكمّلنا بالتقديس لنصـــير أبناء حقيقيين. لكننا نســـعى لنكون على مثال الآب.

حركة المحبة هي تشبُّه وتمايز.

هي تشبُّه بالله، تشبُّه يقوم فيه الثالوث بعطاء فائق للإنســانية لكي تكون على صورة الله فعلاً.

ولكنها أيضا تمايز، لأن الوحدة لا تقوم إلّا على التمايز في الثالوث. فوحدة الجوهر بدون تمايز، ليست وحدة، وإنما توحيد غير مسيحي. ولذلك يظل الإنسان في شـــركته مع الله هو الإنســـان، لا يختفي ولا يذوب في الله، وإنما يتمايز بالصـــفة المخلوقة التي لا تملك أي قدرات تؤهّلها لأنْ تكون مثل الله. فإذا كان الله هو الذي يعطي، فالعطاء يتم في إطار التدبير، وهذا يعني بالضـــرورة أن الله يعطي خليقته في إطار ما تحتمله الطبيعة الإنسانية، أي ما لا يحطّم الطبيعة المخلوقة ويهلكها لو حوَّلها إلى أُلوهيته، لأن التحوُّل هنا يُخرج الخليقة من الإطار الذي وضعه الله لها.

فالنعمة ليســـت تحوُّلاً في الكيان، فليس في ذلك الكيان المخلوق ما يجعله قادرا بقدراته الخاصة على أن يصير مثل الله، وهنا ما يحدث من تحوُّل، هو مضبوطٌ بعمل النعمة وحسب أهداف الله. فالله لا يسعى إلى أن يجعل الإنسان مثله تماما في كل شـيء، لأن هذا معناه توقف العطاء الإلهي، وهذا يعني توقف المحبة. أنْ نصبح

مثل الله تماما معناه أن لا يكون لدينا محبة لله، فالمحبة لا تقوم إلّا إذا ظلّت هناك فروق. محبة الخالق هي محبة معطاءة، ومحبة الإنسان هي محبة ساعية إلى العطاء، تسعى لأنها خلقت ساعية والسعي علامة الطبيعة المخلوقة.

شركتنا في الثالوث، ليست شركة في جوهر الله. لقد قال الآباء بصوت واحد إننا ننال نعمة ولا ننال الجوهر الإلهي. فما هو المقصود من هذا؟

النعمة عطية، والعطية تعني أنَّ شيئا ما لم يكن موجودا ثم وهب. وهذا وصف لا ينطبق على جوهر اللاهوت. فاللاهوت كامل وصالح يعطي ولا يوهب.

والنعمة شركة، هي علاقة بين الله الواهب والمعطي وبين الإنسانية التي أخذت. ولذلك، النعمة كعلاقة، لا تسمح للواحد بأن يتحول لكي يصبح مثل الآخر. فإذا كانت النعمة عطية، والنعمة شركة، فمن الواضح أن العطية والشركة تعطى على قدر احتمال الطبيعة المخلوقة. هذا الاحتمال لا يتعدى صفات وقدرات الطبيعة الإنسانية، وإلّا تتلف أو تتغير. وهنا يجب أن نفهم أن الله عديم التغيُّر، ليس فيه ظل تغيير أو ظل دوران حسب تعبير الرسالة إلى يعقوب. ومن هذا نفهم أن عمل النعمة في الإنسان لا يجعل الإنسان مثل الله، لأن عمل النعمة هو تغيير وتجديد في الإنسان، والتجديد ليس من صفات اللاهوت، بل هو أحد نتائج عمل النعمة في الإنسان. وإذا تغيَّر الإنسان وصار إلها، فمن الواضح أن هذا التغيُّر والصيرورة لا يعني مطلقا أنه مثل الله: "أنا قلت إنكم آلهة وبني العلي .. ولكنكم مثل البشر تموتون"، هذا تغيير وضعف لا يمكن أن ينسب إلى الله الذي لا يموت.

إذاً، نحن ننال التبني، فالبنوة ليست طبيعة فينا، إنها نعمة. والفرق بين الطبيعة والنعمة هائل جدا. فالمسيح هو ابن الله، هذه طبيعة الأقنوم الثاني من أقانيم

الثالوث. إنها ولادة أزلية من الآب، مشاركة للآب في كل صفات الجوهر أو الطبيعة الإلهية. هذا أمر يخصُّ الأقنوم الثاني، ولا يمكن أن تناله الطبيعة المخلوقة سواء كانت هذه الطبيعة ملائكية أم إنسانية. والأسباب واضحة، ويمكن أن نشرحها على هذا النحو:

١– صفات الله كاملة منذ الأبد، لا تغيير فيها، وهذا يعني أنها لا تسمح بوافد جديد، وعندما حدث الاتحاد بين اللاهوت والناسوت في المسيح نفسه، لم يتحوَّل الناسوت إلى لاهوت، بل ظل ناسوتاً.

٢– فإذا كان الناسوت في الابن المتجسد لم يتحوَّل إلى لاهوت، فما هو الداعي لأنْ يتحوَّل البشر الذين حصلوا على نعمة الشركة في الطبيعة الإلهية بدورهم إلى آلهة بالمعنى الدقيق الخاص بالجوهر الإلهي؟

٣– لكن النعمة هي عمل إلهيٌّ نابع من الطبيعة الإلهية. فالبنوة هي عطية الله الآب في ابنه يسوع المسيح، هي نعمة غير مخلوقة، هي إشعاعٌ إلهيٌّ مؤكَّدٌ، وهبةٌ للحياة الغير المخلوقة التي تُعطى للإنسان. وإلَّا إذا كان الإنسان لا يأخذ هذه الهبة من الله وبشكلٍ مباشر، فلا يجوز أن نقول عنه إنه صار ابن الله في المسيح. ولكن – كما ذكرنا سابقاً– لم يكن الإنسان ابناً ثم صار ابناً، هكذا بعكس الابن؛ فهو ابن من الأبد. وهذا يعني أن الإنسان لا ينتمي أصلاً إلى الطبيعة الإلهية، وهذا بدوره يعني أنه لا يملك صفات الطبيعة الإلهية، هي ليست له ولن تكون له، لأنه ليس فقط متغيّر، وإنما هو لا يطيق أن يكون أبديا مثل الله، ينال الأبدية، دون أن يكون أبديا، يحيَا إلى الأبد، ومع ذلك فهو ليس كائن منذ الأبد. فالإنسان وافدٌ جديدٌ على الأبدية، التي هي ليست صفة من صفاته، فكيف يتحول عديم الأبدية إلى

أبدي؟ هذا يتطلب أن يكون الإنسان كائنًا قبل خلق العالم.

على نفس القياس نفهم البنوة، الابن يعطينا أن نكون أبناء للآب. لكننا لا نُولد من جوهر الآب. فهذه الولادة الأزلية خاصةٌ بالابن، وتعني الوحدة في الجوهر، هذه أمور لا يمكن أن تُعطى للإنسان. ليس فقط لأن الإنسان زمنيٌّ، وإنما لأن الطبيعة المخلوقة محدودةٌ بما لديها من فكر وحرية وحضور في المكان والزمان. لم يكن الإنسان موجودا، بل جاء من العدم إلى الوجود، فكيف يصبح الإنسان مثل الله؟

٤– النعمة –كما قلنا– شركةٌ، والشركة بين اثنين، ويظل الله كما هو الله، والإنسان كما هو إنسان، إذا تحول كلاهما إلى الآخر، لم تعد هذه شركة، وبالتالي ليست نعمة. فالنعمة علاقة، وحضور الله وحلوله في الإنسان يمنح للإنسان العطايا التي تجعله إنسانًا كاملًا مخلوقًا على صورة الله ومثاله.

الصليب هو علامة اشتراكنا في الأسرار

الطقس المشترك في كل الأسرار هو الرشم بالصليب واستدعاء الروح القدس. فكل عطايا الله تُوهب بالصليب؛ مياه المعمودية، رشومات الميرون، رشم الخبز والخمر، ... الخ. الصليب يرشَم للبركة وللتقديس، لاتحاد الرجل والمرأة، ولحلول الروح القدس.

الصليب يمنح للأسرار معناها العميق. فالمعمودية هي شركةٌ في موت المسيح وقيامته. هي فعلًا بداية الصليب كعملٍ وكطقس. فالإنسان قبل المعمودية لا يرشم الصليب، وإن رشَمه فهو بلا معنى وبلا فاعلية، فالإنسان لا يرشم الصليب إلّا بعد أن يتَّحد بالمسيح في موته وصليبه وقيامته. بعد ذلك يصبح رشم الصليب من حق كل مسيحي معتمد. فيرافق الصليب كل إنسان في الصلاة في قراءة الكتاب ... إلخ